الإنسان حامي البيئة وملوِّثُها؟!

أ.د. أسعد السحمراني

أستاذ العقائد والأديان في كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة-بيروت

١- مدخل استعلامي:

بات سؤال البيئة من الأسئلة التي تحارُ فيها الأذهان، وترى الشخص أمامها حائراً بين شتّى الفِكَر، لأنّ كلّ حكيم يقف متسائلاً: ما دام الله -تعالى- قد استخلف الإنسان في الأرض وكلّفه بإعمارها، وسخّر له ما تكنزه من ثروات، وما دام هذا الإنسان حامل أمانة الأمان والاستقرار والإعمار، وصناعة السعادة لبني آدم كافّة؛ لماذا لوّث البيئة، وألحق بالكثير من ثرواتها الخراب والتدنيس والإفساد؟

وتتفرّع من ذلك أسئلة فرعيّة:

١- إذا كان الإنسان مؤتمناً على ثروات الطبيعة والبيئة بكلّ مكوّناتها، ما الذي دفعه إلى التفريط بالأمانة؟

٢- هل كان الدافع مجرّد التخريب؟ وهل كانت ميول الإشباع بنهم هي السبب؟

٣- هل حبّ الكشف العلمي والاختبار هو الدافع لمثل هذه الممارسات العدوانيّة ضدّ الثروات، وهي نِعَم إلهيّة؟

٤- أم أنّ قلّة الإيمان مع الميل الشيطاني إلى المعاصي هو ما أنتج ذلك؟

٥- أم أنّ فساد الفكر، وسمات الشخصيّة الملوَّثة انعكس على ما تحت يد الإنسان فأفسده؟

.... إلخ.

٢- حقل معجمي:

إنّ الدخول في البحث العلمي في أيّ موضوع يوجب على الباحث أن يستهلّ عمله بحقل معجمي (تعريفي)، وذلك جلاء للمفاهيم، وإنارة للأفهام، وضبطاً للمفردات المفتاحيّة في البحث لغةً واصطلاحاً.

المفردة الأساس في هذه البحث هي الإنسان؛ الإنسان الذي خلقه الله -تعالى- في أحسن تقويم، واستخلفه في الأرض، وجعله على صورة مميّزة لا تقاربها هيئة مخلوق آخر، وأنعم -سبحانه- على الإنسان بنعمة العقل والفكر، وزاد في تكريمه بما وهبه من الأرزاق والنِعَم. وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.﴾ (سورة الإسراء، الآية ٧٠).

فقد اقترن الإستخلاف والتكريم بالعلم، وهو أفضل ما في التقويم الأحسن، وكانت مشيئة الله تعالى منذ آدم الأول أن زوّده الله -تعالى- بالعلم، وهذا ما بيّنته الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (سورة البقرة، الآية ٣١).

ما هذا العلم الأوّل؟ المعلوم أنّ لكلّ كائن إسم، وكلّ إسم له مفهوم والإسم دالّ على مدلول بعينه، وكلّ مفهوم تتوالد منه صور يدركها من امتلك قوى الإدراك الحسّي والعقلي، وكلّ إدراك يكون أساساً لمستوى في الوعي، وما يجمعه الوعي من الإدراك يتشكّل منه الفكر، بمستوى الأفكار البسيطة، والأفكار المركّبة، والفكر يتكوّن معه تعقّل وأحاسيس داخليّة (مشاعر)، وهذه تصبح قناعات تحكم فهم الإنسان ومفاهيمه، وهي التي تقود أفعاله الإراديّة، وتوجّه قراراته، كما تصدر منها أفعاله العفويّة.

هذا الإنسان ابن بيئة متعدّدة الأنواع والتقسيمات، فهي تتوزّع في بيئة دينيّة، وبيئة اجتماعيّة، وبيئة طبيعيّة جغرافيّة، وبيئة ثقافيّة، وبيئة اقتصاديّة، وبيئة فنّيّة، وبيئة سياسيّة... إلخ.

فما البيئة لغة؟: "بوّأتك بيتاً: اتّخذت لكَ بيتاً. أبأت القوم منزلاً، وبوّأتهم منزلاً تبويئاً، وذلك إذا نزلت بهم إلى سَنَد جبل أو قِبَل نهر. والتبوّؤ: أن يُعلِم الرجل الرجل على المكان إذا أعجبه لينزله.

وقيل: تبوّأه: أصلحه وهيّأه. ... وتبوّأت منزلاً، أي: نزلته.

... وتبوّأ المكان: حلّه. وإنّه لَحَسَنَ البيئة؛ أيّ: هيئة التبوّء.

والبيئة، والباءة، والمباءة: المنزل. وفي الصحاح: المباءة: منزل القوم في كلّ موضع."[1]

وبذلك يكون للإنسان منزل هو بيئته، وهو محيطه الذي نشأ فيه وتربّى في فضائه، فكان من تأثير ذلك تكوينه الشخصي والسمات التي يتميّز بها عن الآخرين.

فالإنسان العاقل هو من يحمي بيئاته بأنواعها من التلويث والفساد، ومن التلوّث ما يكون عقديّاً، ومنه ما هو اجتماعي، ومنه ما هو قيمي أخلاقي، وآخر سياسي، ومن التلويث ما يلحق السلوك الاقتصادي والمهني للشخص وهكذا.

<u>فما التلوّث؟:</u>

عند مراجعة "لسان العرب" يجد الباحث أنّ "اللّوث" كلّ دلالاته سلبيّة وممّا جاء تحت باب: "لوث" ما يلي: "اللّوث: الشرّ. واللّوث: الجراحات. واللّوث: المطالبات بالأحقاد. ... وهو من التلوّث: التلطّخ... ورجل فيه لوثة: أي: استرخاء وحُمق. ... الألوث: الأحمق، الجبان."[2]

وهناك مفردات تقارب التلوّث في الدلالة يفيد تحديدها هي:

<u>النجس:</u> قال الراغب الأصفهاني: "النجاسة: القذارة، وذلك ضربان: ضرب يُدرَك بالحاسّة، وضرب يدرك بالبصيرة."[3]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، م١، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص ٣٨٢.
[2] ابن منظور، م.س.، م٥، ص ٤٠٩٣.
[3] الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم المرعشلي، بيروت، دار الكاتب العربي، سنة ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢م، ص٥٠٣.

فالنجاسة تكون بتلطّخ الجسد، أو الثوب، أو المكان، أو الأثاث، أو الماء، أو سواها بالقاذورات، وهذه نجاسة حسّيّة، يفيد معها التطهير بالوسائل المتاحة والمختصّة بإزالتها. وهناك النجاسة المعنويّة التي تجعل الفكر ملوّثاً، والنفوس مملوءة بالخبائث، والكلمات مرفقة مع البذاءة والشتائم، وهذه نجاسة أخطر، وأشدّ فتكاً بالمجتمع، وتطهيرها عمل شاقّ، ودونه عوائق وعقبات، ولو حصل فيحتاج لوقت غير قصير.

الرجس: جاء في "لسان العرب": الرّجس: القذر، وقيل: الشيء القذر. ...وكلّ قذر رجس، ... ورجس: نَجِس. ... وقد يُعبّر به عن الحرام، والفِعل القبيح، والعذاب، واللعنة، والكفر."[1]

والرجس عمل شيطاني قد يلحق بالعقيدة، أو بالفكر، أو بالمشاعر والميول، أو بالروابط الاجتماعيّة، ومنه ما يكون تلويثاً للبيئة والطبيعة، أو أحد مكوّناتها.

الدنس: تدور الكلمة في الفضاء نفسه، فالتدنيس قد يكون للثياب، أو لأثاث البيت وسواه، أو لشيء ما، فهو تلطيخ بالقذر، وقد يلحق الفكر، والمعتقد، والشرف، والنفس... إلخ، وهو شكل من التلوّث. قال صاحب لسان العرب: "الدنس في الثياب: لطخ الوسخ ونحوه حتّى في الأخلاق. ... الدنس: الوسخ، ودنّس الرجل عرضه إذا فعل ما يشينه."[2]

وخلاف التلوّث بكلّ تقليبات مفرداته الطهارة. والطهارة ركن رئيس في عبادات المتديّنين، وتشمل كلّ جوانب الحياة، وتتنوّع الطهارة بين ما هو حسّيّ يتعلّق بالجسد، والثوب، والأثاث، والمكان، ومنها الطهر الفكري، والعَقدي، والقلبي، وطهارة النفس، وطهارة السلعة ومعروضات الاقتصاد... إلخ.

٣- الطهارة:

الطّهر: نقيض النجاسة. ورد في معجم "تاج العروس": "الطاهر ضربان: ضرب لا تتعدّاه الطهارة، كطهارة الثوب، فإنّه طاهر غير مُطهَّر به، وضرب تتعدّاه فيجعل غيره طاهراً به، فوصف الله -تعالى- الماء بأنّه طَهُور تنبيهاً على هذا المعنى. ... التطهّر: التنزّه. تطهّر من الإثم: إذا تنزّه. التطهّر: الكفّ عن الإثم وما لا يَجْمُل. وهو طاهر الأثواب والثياب: نَزِهٌ من مَداني الأخلاق. ... ورجل طَهِر الخُلُق وطاهره. والأنثى طاهرة. وإنّه لطاهر الثياب؛ أيّ: ليس بذي دَنَس في الأخلاق."[3]

فالطهارة الحسّيّة، والطهارة المعنويّة المتعلّقة بالفكر والنفس والخلق، كلّها مطلوبة، وكلّ نجاسة تحدث تلويثاً تجعل الشخص غير طاهر. وفي النصّ المسيحي، ما يلي: "الويل لكم أيّها الكتبة والفِرّيسيون المراؤون، فإنّكم تطهّرون ظاهر الكأس والصحن، وداخلها ممتلئ من حصيلة النهب والطمع. أيّها الفِرّيسي الأعمى، طهّر أوّلاً داخل الكأس، ليصير الطاهر أيضاً طاهراً." (إنجيل متّى، ٢٣: ٢٥، ٢٦).

---

[1] ابن منظور، م.س.، م٣، ص١٥٩٠.

[2] ابن منظور، م.س.، م٢، ص١٤٣٢.

[3] الزبيدي، السيّد محمّد مرتضى بن محمّد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، اعتنى به د. عبدالمنعم خليل إبراهيم، وكريم سيّد محمّد محمود، م٦، ج١٢، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط٢، سنة ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، ص٢٣٥.

إنّه خطاب يحمل اللوم والتأنيب لمن اكتفوا بغسل الأواني وتطهيرها بالماء وبمواد التنظيف، ولكنّهم يحشدون في محتوياتها ما مصدره اللصوصيّة والسرقة، وهذا هو التلويث الحقيقي، فلا يستقيم أمر الطهارة حال يعتني الناس بطهارة الشكل، ويكون المحتوى والمضمون، أو الجوهر ملوّثاً. فما النفع حين تعتني جهة، أو دولة؛ أو شخص بنظافة المقاعد والطرقات، والجدران، وفي الوقت نفسه تكون مكوِّنات المقاعد منهوبة، وعمّالها بالسخرة؟ وما فائدة كنس الطرقات، وغسل الجدران، وقد اغتُصبت الأرض المقامة عليها، وما تمّ تأهيله بها مصدره السرقات؟!

فالواجب أن يكون ما تحويه الكأس طاهراً ليكون الكأس طاهراً، وهكذا الإنسان؛ فالصحيح أن يكون فكره طاهراً، وقلبه صافياً، ونواياه حسنة، ووجدانه سامياً، فمثل هذا الإنسان الطاهر داخله يكون عليه بعدها العمل لطهارة جسده، وهكذا الطبيعة والبيئة لن تَطهُرا ما لم يَطهُر الإنسان الذي يعمل في كنفهما اكتشافاً، واستثماراً، وبناءً، وتنميةً... إلخ.

ويكمل النصّ الإنجيلي في مسار التأكيد على طهارة الجانب الجوّاني من الإنسان ليطهر بعدها كلّ ما يقع تحت يده، وفي النصّ: "ما من شيء خارج عن الإنسان إذا دخل الإنسان ينجسّه. ولكن ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجّس الإنسان. ... لأنّه من باطن الناس، من قلوبهم، تنبعث المقاصد السّيّئة والفُحش والسّرقة والقتل والزنا والطمع والخُبث والمكر والفجور والحسد والشتم والكبرياء والغباوة. جميع هذه المنكرات تخرج من باطن الإنسان فتنجّسه." (إنجيل مرقس: ٧: ١٥-٢١، ٢٢، ٢٣).

الإنسان هو الموكل بحماية ما في الطبيعة من نِعَم وعطايا إلهيّة، وهو المستثمر لها، والمستفيد منها، كما أنّه هو من يصونها أو يفرّط بها ويلوّثها، ومصدر التلويث ما يصدر منه من سلوك وممارسات أساسها فكر فاسد، ونوايا خبيثة. وهذا ما بيّنه النصّ المسيحي الآنف ذكره، فمصدر التلويث الأساسي ما يخرج من باطن الإنسان فكراً ووجداناً، وما يترجمه النطق أفعالاً ومواقف، فهذه يكون بسببها ما في البيئة الاجتماعيّة والطبيعيّة من مفاسد، وتلويث، وخرائب؛ فما يخرج من الإنسان هو الأولى بالعناية، وإمّا أن يكون مصدراً للطهر والنقاء، وإمّا أنّه يلوّث الإنسان خُلُقاً، وسلوكاً، وإمّا يرتقي به في معارج التسامي. فمن أراد حماية البيئة من التلويث والملوِّثات واجبه إعداد الإنسان وتنشئته تنشئة سليمة، فهو قائد الرّكب، وربّان المركب البيئي في كلّ الميادين.

بعد عرض الطهارة في المسيحيّة، يصل الدور للسؤال: وما مفهوم الطهارة في النصّ الإسلامي؟:

إنّ الطهر الحقيقي هو طهارة القلب، وطهارة جوهر الإنسان ودخائل نفسه التي بين جَنَبيْه، ولا يتوقّف الأمر عند طهارة المظهر فقط.

فالتلوّث: هو ما كان في القلب، وفي النوايا، أوّلاً، فإنّ النوايا الملوّثة، التي تختزن الشرّ والمفاسد تتسرّب إلى الفكر والقرار فتفسدهما، ومن هذا الاتّجاه يحصل تلويث البيئتيْن: الاجتماعيّة والطبيعيّة.

وفي الحديث النبوي الشريف: "إنّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم."[١] وما يفيده الحديث أنّ التقوى والخشوع اللذيْن يملآن القلب، هما اللذان يُصلحان الإنسان، وعندها ينعكس ذلك طهراً على الجسد، والمجتمع، والطبيعة.

فكلّ فكر، أو قول، أو قرار، أو فعل، تسبقهم نيّة، والنيّة هي مدار الصلاح أو الفساد، وهي مصدر الخير أو الشرّ، وهي التي توجّه الإنسان إلى ما فيه الطهارة والنّقاء والحفاظ على البيئة الاجتماعيّة والطبيعيّة، أو ما يكون منه تلويثهما والتفريط بهما. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "إنّما الأعمال بالنيّة، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى."[٢] وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أمّا النصّ القرآني فنجده قد ربط المثل في الكلمة والفعل مع بعض مكوّنات البيئة لتأكيد الترابط بينهم، فصلاح القول والفعل يصون البيئة من التلويث، وفساد القول والفعل يؤدّي إلى الإفساد والتلويث.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.﴾ (سورة إبراهيم، الآيتان ٢٤، ٢٥).
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ.﴾ (سورة إبراهيم، الآية ٢٦).

فالكلمة الطيّبة تتعملق لتكون شجرة دائمة الاخضرار، دائمة الثمار، يجني منها كلّ إنسان ما أراد وقت يحتاج، ونقيضها شجرة خبيثة ينتشر خبثها ونَتَنَها في كلّ الاتّجاهات لتلوّث وتنجّس.

وإذا انتقل القول إلى الفعل نجد النصّ القرآني قد جاء فيه تشبيه أعمال الكفّار بالرماد الذي تذروه الرياح فيحصل منه التلويث وتنتفي مع نجسه الطهارة.

قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ.﴾ (سورة إبراهيم، الآية ١٨).

يخلص المقال إلى النتيجة الآتية: يتبيّن من النصّيْن المسيحي والإسلامي أنّ الإنسان مصدر ما يحقّق الطهارة ويحفظ البيئة نيّةً، وقولاً، ومقالاً، وهو من يكون من مخرجاته نيّة، وقولاً، وفعلاً: التلويث.

٤- الإنسان يحمي البيئة أو يلوّثها:

تغشى العالم قاطبة موجة من القلق جرّاء التلوّث البيئي، والذي يتمظهر بأكثر من شكل، وفي أكثر من موقع في التراب والبحار والهواء. والقلق مشروع من هذا التلوّث الذي تدخل مفاعيله في الماء الذي يشربه

[١] أخرجه مسلم، في الصحيح، في كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم (٢٥٦٤) طبعة دار الفكر- بيروت.
[٢] أخرجه الترمذي، في الجامع المختصر (سنن الترمذي)، في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء فيمن يقاتل رياءً وللدنيا، رقم (١٦٥٣)، طبعة دار الفكر، بيروت.

البشر، وفي الهواء الذي يتنشّقونه، وفي الغذاء الذي يقتاتون به، ويبقى السؤال: كيف للدول والمنظّمات أن تعالج هذه المؤثّرات الكارثيّة؟

يأتيك الجواب بسرعة البرق: إبحث عن دور الإنسان. الإنسان الذي أعطاه الله نعمة التفكير والوجدان، وأعطاه المعارف والخبرات كي يتصرّف بما بين يديْه باتّجاه الخيريّة، وما تتحقّق من خلاله سعادة الإنسان؛ كلّ إنسان.

من هنا يكون بدء المسار التصحيحي مع الإنسان الذي أنعم الله -تعالى- عليه بخيرات هذا الكون المنظور، وجعلها أمانة واجبه الحفاظ عليها، وترشيد استخداماتها، وتقديم ما تجود به لسدّ حاجات البشر كافّة، من غير نظر إلى انتماء ديني، أو وطني قومي، أو عرقي، أو لون ولغة ومكان إقامة.

فالإنسان هو من يحمي البيئة، وهو من يستثمر في خيراتها وما تجود به، وهو المستهلك لما يجنيه أو ينتجه، وهو من يعبث بهذه الأنعم فيوظّفها في غير مصارفها المشروعة، أو يفرّط بها من خلال تجارب وأنماط سلوكيّة توصل الحال إلى ما هو عليه اليوم.

عند العودة إلى النصّ القرآني سيكتشف كلّ متدبّر للنصوص أنّ ما تعانيه الأمم إنّما هو نتيجة لعَبَث قبيل من الأفراد والدول بموازين الطبيعة. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.﴾ (سورة الرحمن، الآية ٧، ٨، ٩).

لقد خلق الله -تعالى- السموات والأراضين، وجعلها وفق موازين دقيقة، فهي قائمة على العدل، ولهذا اقتبس الناس الرمز، وهو الميزان، للقضاء والمحامين. وكان أمره سبحانه للناس أن يحترموا ذلك، وألّا يتجاوزوا الحدود والسنن الكونيّة، وإذا تعاملوا مع ثروات الكون أن يلتزموا العدل (القسط)، وألّا يبخسوا الناس أشياءهم.

لكنّ من يبحث حال الثروات الطبيعيّة يكتشف كم من الجرائم ارتكَبَتْ بعض الدول، أو بعض الأفراد، فإنّهم لم ينتهوا عمّا نهاهم عنه الله -تعالى- :﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾، لا بل دفعتهم أفكارهم المسمومة، ونواياهم الخبيثة، وأطماعهم التي لا حدّ لها إلى المضيّ في تدمير الكثير من مصادر الثروة، أو تلويثها بحيث أصبحت غير صالحة كي يستخدمها البشر.

فما أنعم به الله -تعالى- على عباده، فهم مؤتمنون عليه، لأنّه ملكه سبحانه، ولا يجوز لأيّ شخص التصرّف به في غير ما فيه الصالح العامّ، ووفق العدل والقسطاس، فثروات الكون معطاة للناس مؤمنين وغير مؤمنين، وأخيار فضلاء، أو أشرار أراذل. وفي النصّ الإنجيلي: "فإنّه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين." (إنجيل متّى؛ ٥: ٤٥). الكلّ يناله من كنوز الطبيعة، وفي الآخرة الله تعالى يحاسب عباده على ما عملوا في حياتهم الدنيا.

هي مشيئة الخالق سبحانه أن يهب الأرزاق لكلّ مخلوق حيّ أيّاً كانت عقيدته، وأيّاً كانت مفاهيمه، وأيّاً كانت أنماط سلوكه وأفعاله.

وقد جاء في الحديث النبوي ما يدلّ على الأمر نفسه. والحديث هو الآتي: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شَرْبة ماء."[1]

وفي النصّ المسيحي - كذلك- ما يؤكّد أنّ خيرات الطبيعة متاحة لكلّ كائن حيّ ليتغذّى منها، وفيها جماليّات الواجب الحفاظ عليها. ورد في النصّ الإنجيلي: "أنظروا إلى طيور السماء؛ إنّها تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماويّ يقوتها. ... تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو، لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم: إنّه ولا سليمان في كلّ مجده كان يلبس كواحدة منها." (إنجيل متّى، ٦: ٢٦- ٢٨، ٢٩).

هذه النصوص تبيّن أنّ الله تعالى قد خلق سُنناً كونيّة واجب الإنسان احترامها، وأنّ واجبه التزام القناعة والابتعاد عن الجشع الذي يتمثّل بالفوضى في استخدام الثروات، والذي يفتح الطريق لممارسات تهلك الحرث والنسل، وتنشر الفساد الاجتماعي والبيئي، ومن هذا القبيل يكون التلوّث بنوعيْه الحسّيّ المادّيّ، والمعنويّ الاجتماعيّ.

٥- البيئة والاستثمار في التربية:

يلحّ كثيرون، على مستوى الدول الوطنيّة ومؤسّساتها أو المنظّمات الأهليّة، على إصدار مواثيق تنصّ على حماية البيئة، وكذلك تُعقد لهذا الغرض المؤتمرات والندوات، ومع ذلك يجد المعنيّون بروز حالات جمّة من العبث بالطبيعة والمناخ، وسبب ذلك أنّ جهوداً وأموالاً يتمّ إنفاقها في غير المكان المناسب.

والصحيح أن تتّجه الجهود كلّها إلى بناء الإنسان حامي البيئة ومستهلك ثرواتها، وهذا الإنسان يكون بناؤه من خلال الاستثمار في التربية. وإنّ التربية السليمة، والتنشئة القويمة للإنسان ستعطي نتائج باهرة، فالإنسان هو من يصنع النهوض الحضاري، وهو من ينجز في ميادين الحضارة، وهو من يستهلك ما ينجزه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الله تعالى قد شاء تركيب الإنسان من طبيعتيْن: طينيّة، وروحانيّة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (سورة المؤمنون، الآية ١٢). وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة ص، الآية ٧٢).

فالطبيعة الطينيّة تشدّه إلى أصلها لتجعله يغرق في وحول العلائق المادّيّة، ولو نجحت بذلك لتحوّل إلى حال من يقودون مشاريع متوحّشة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان، ولا للأنعم التي سخّرها الله تعالى من أجل إسعاد الإنسان المستخلف في الأرض، وهذا المسار هو الذي أفسد البيئة بتجاربه النوويّة والبيولوجيّة، وبعبثه بثروات الطبيعة كما يعبث الأطفال بالدمى.

[1] أخرجه الترمذيّ، في الجامع المختصر (سنن الترمذي)، في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هواء الدنيا على الله، رقم (٢٣٢٧)، طبعة دار الفكر، بيروت.

وبمقابل ذلك تفعل الطبيعة الروحانيّة النورانيّة فعلها من أجل أن تتسامى بالإنسان في معارج الفكر الرشيد، والعقل الحكيم، والسلوك الفاضل، مع إثراء ذاته الجوّانيّة بالإيمان بلا تعصّب، والتديّن بلا تطيّف أو تمذهب، وإذا ما تحقّق ذلك كان هو العامل الحاسم بتوليد محاميع بشريّة تحفظ كرامة الإنسان، وتصون البيئة وثروات الطبيعة، وينتفي عنده التلوّث من البيئات كلّها؛ الاجتماعيّة، والسياسيّة، والفكريّة، والأخلاقيّة، والاقتصاديّة، والطبيعيّة... إلخ.

فما السبيل لتحقيق ذلك؟.

٦- توصيات ومقترحات: الإنسان هو المحور، وهو القضيّة الأولى والأخيرة في حماية البيئة، واحترام قوانين التوازن الطبيعي التي هي سنّة الله - تعالى- في خلقه، والوجه الآخر هو أنّ الإنسان مستخلف في الأرض ليعمّرها، ولينمّي ثرواتها، وفي هذا كان قول الله - تعالى-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (سورة هود، الآية ٦١).

لقد خلق الله -تعالى- الإنسان من طين مصدره الأرض، ثمّ جعله فيها خليفة، وأسكنه مع أقرانه فيها ليَعْمُروها، ويعمّروها. والإنسان أمام أحد خيارَيْن هما: إمّا حمل الأمانة إنفاذاً لمشيئة الخالق سبحانه بالتعامل مع الطبيعة والبيئة بضوابط شرعيّة، وبيئيّة، واقتصاديّة، وبفقهٍ رشيدٍ، وإمّا أن يعيث في الأرض فساداً كما فعل المتوحّشون من قادة دول العالم ممّن يحملون فكراً تخريبياً ملوّثاً بالعدوانيّة، والعنصريّة، والاستعلاء، والعمل في ممارسة الاستبداد والاستعباد، ولذلك كان ما يراه الجميع اليوم أمام أعنيهم.

لذلك يحتاج أمر حماية البيئة إلى بناء شخصيّة الإنسان على أسس فكريّة سليمة كي يعكس هذا الفكر نفسه أفعالاً لا مكان فيها لمنهج الاستدمار، ولا تقبل أيّ سلوك فاسد يسهم في إهلاك الحرث والنسل، ومثل هذا أساسه الثقافة الصالحة المرتكزة على الإيمان، والتزام الشريعة.

إنّ مشروع البناء الحضاري في الأمّة يحتاج للمعادلة التي صاغها المفكّر الجزائري مالك بن نبي (ت ١٩٧٣م) في مقالته الآتية: "إنّ صناعة التاريخ تتمّ تبعاً لتأثير طوائف اجتماعيّة ثلاثة:

أ- تأثير عالم الأشخاص

ب- تأثير عالم الأفكار

ج- تأثير عالم الأشياء

لكنّ هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرّقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج أيديولوجيّة (فكرويّة) من عالم الأفكار، يتمّ تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحدّدها عالم الأشخاص."[١]

[١] ابن نبي، مالك، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعيّة، ترجمة عبدالصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، بدون تاريخ، ص٢٣، ٢٤.

ثلاثيّة مالك بن نبي محورها (عالم الأشخاص) الذي يحمل (عالم الأفكار) ليفعل فعله في (عالم الأشياء)، وهذا يقوم على صياغة نسيج اجتماعي متآلف، وله مقاصده كي يَعمُر الأرض، ويقيم المباني الحضاريّة، ويحفظ الثروة والبيئة، لذلك يكون المسار القويم في الانطلاق من قول الله -تعالى- :﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، الآية ١١).

تأسيساً على ما تقدّم يخلص البحث إلى التوصيات الآتية:

١- توجيه الاهتمام إلى العمليّة التربويّة لبناء شخصيّة الإنسان الفرد، ومن ثمّ المجتمع على أسس قويمة، وبناءات فكريّة رشيدة، لأنّ الإنسان هو ربّان سفينة مسار الحياة الدنيا، وهو من يعمر الأرض أو يعيث فيها تخريباً وفساداً، وهو من يحمي البيئة وثروات الطبيعة، كما أنّه من يتحوّل شرّيراً يهلك الحرث والنسل.

٢- مراجعة المناهج الدراسيّة، والمقرّرات المعتمدة للموادّ في التدريس بحيث تنقّى من الوافد الثقافي المسموم الذي يغرس قيم المادّة والرقم، والاتّجاه إلى مخزون النصوص في رسالات السماء الخالدة، وإلى التراث الأصيل، لاستخراج ما فيه الضوابط والثوابت لمناهج ومقرّرات تجعل الناشئة في مسار سلوكي أصيل، وملتزم بالقيم الناظمة لشبكة النسيج الاجتماعي الوطني ومثل هذا الجيل الذي قام بنيان شخصيّته على أسس سليمة هو من يحمي البيئة الطبيعيّة، والبيئة الاجتماعيّة من التلوّث.

٣- إدخال مقرّرات دراسيّة في مراحل التعليم الأساسي، والثانوي، والجامعي تعالج موضوع البيئة، مبيّنة أهميّة النظافة، والثروات الطبيعيّة في حياة الشعوب والأمم، مع إبراز مخاطر تلويث البيئة: تربة، وماء، وهواء، على حياة الناس، وعلى غذائهم، وشرابهم، ومناخهم.

٤- إعادة النظر في توزيع كتل المباني مساحة وارتفاعاً بحيث تكون متناسبة مع جغرافية المكان، هذا مع تنظيم مديني متشدّد في مسألة الحفاظ على الاخضرار من خلال تخصيص مساحات لغرس الأشجار والنباتات لتكون المصفاة لتنقية الطبيعة والبيئة.

٥- الحدّ من فوضى التجارب العلميّة التي لا تحترم حياة الإنسان ولا هي تحفظ حرمة الطبيعة والبيئة تربة، وماء، وهواء، وثروات خضراء، بل يتمادى المتسلّطون من الدول الكبرى في تجاربهم البيولوجيّة، والكيميائيّة، والنوويّة، كما أنّهم ينشرون النفايات السامّة في كلّ مكان متجاوزين قيم الدين، ومواثيق القانون الدولي الإنساني، وسائر القوانين والمعاهدات.

سفينة العالم يبحر على متنها جميع الناس شعوباً وأمماً، ولا بدّ لهم من الأخذ على أيدي من يمارسون العدوان البيئي، والجرائم بحقّ الإنسان من خلال العبث بالطبيعة، والّا ستغرق السفينة بالجميع.